الصورة البديعية في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

للدكتور/ صلاح محمود على شحاته

مؤلف هذا الكتاب هو : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي عام ٤٠٣ للهجرة ، وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الاشاعرة ، وقد نشأ في البصرة ، وتثقف ثقافة عربية متنوعة على أيد كبار العلماء في عصره (١) .

وقد كان « الباقلانى » لسنا بارعا في الجدل والاحتجاج ، ومن الابحاث التى عنى بها بحث « الاعجاز في القرآن الكريم »وخصص له كتابا مستقلا هو كتاب « اعجاز القرآن » الذى نحن بصدد استخراج الالوان البديعية منه - فيما سيأتى من صفحات - ان شاء الله -

... وقد بدأ « الباقلانى » كتابه هذا بمقدمة تهدى الى الكتاب وبحوثه ثم تكلم عن نبوة الرسول وان معجزتها القرآن ، ودلل على أن القرآن معجزة وأحصي جملة وجوه الاعجاز فيما يلى :

١ - الاخبار عن المغيبات ..

٢- ما فيه من أخبار الامم القديمة مع أمية الرسول ..

٣ - نظم القرآن .

٤ - .. وقد شرح الباقلانى جمال النظم للقرآن في عشرة وجوه ثم تحدث عن نفى الشعر والسجع عن القرآن ،وكذلك تحدث عن

---

(١) ينظر في ترجمته : « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٩٩ ، و « الانساب » للسمعانى ص ٩١ ، « البداية والنهاية » ج ٢ ص ١٤٤

نفى الشعر والسجع عن القرآن ، وكذلك تحدث عن مطاعن الملاحدة على الاسلوب القرآنى وقيدها ، ويبين أن الحاجة الى الحديث عن اعجاز القرآن أهم من الحاجة الى المباحث اللغوية والنحوية (١) .

وقد أشار « الباقلانى » الى أن « الجاحظ » صنف في نظم القرآن كتـــابا .

ويقول : انه لم يزد فيه على ما قال المتكلمون شـــيئا ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى (٢) .

وقد خصص « الباقلانى » الفصل الاول من كتابه هذا للحـديث عن أن القرآن هو معجزة الرســـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأن معجزة هذا القران مرجعها الى بلاغته ويستشـهد لذلك بايات من الذكر الحكيم (٣) .

ثم يفتتح « الباقلانى » فصلا ثانيا يوضح به الفصل الاول ، وما ساق فيه من حجج على اعجاز القران وفي أثناء هذا الفصـل وفي تضاعيفه يرد ردا عنيفا مقحما على من عللوا اعجاز القران بالصرفة من المعتزلة (٤) .

ثم عقد فصلا تحدث فيه عن وجوه « البديع » ، وفي هذا الفصل تخيل « الباقلانى » أن سائلا يسأله : هل يمكن أن يعـرف اعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟؟....

ويجيب « الباقلانى » عن هذا السؤال بايراد بعض ألوان من البديع مما عرف بعضه عند « ابن المعتز » ، وبعضه عند « قـدامة

---

(١) « اعجاز القرآن » ص ٥ ط . سيد صقر .
(٢) « اعجاز القرآن » ص ٦ .
(٣) ينظر « اعجاز القرآن » من حث : ص ١٤ .
(٤) « البلاغة تطور وتاريخ » د. شوقى ضيف ص ١٨ ، « علم البديع نشأته وتطوره د. عبد الرازق زايد ص ٢٧٧

ابن جعفر » ، و « أبى هلال العسكرى » في كتابه « الصناعتين » ... وغير هؤلاء من الذين درسوا « البديع » واستنبطوا بعض فنونه ويعرض منها نماذج من أمثلتهم لتلك الفنون ، ويعقب عليها بنماذج وردت في القرآن الكريم (١) .

وهذه الفنون البديعية هى :

١ ـ « الاستعارة » :

وقد سار « الباقلانى » في كلامه عن الصور البديعية على منهج ابن « المعتز » في كتابه « البديع » ، و « أبى هلال العسكرى » في كتابه « الصناعتين » .

فاستهله بالحديث عن « الاستعارة » ، الا أننا نلاحظ أن « الباقلانى » لم يضع للاستعارة تعريفا محددا ـ كما فعل « ابن المعتز » ، و « أبو هلال » واكتفى بايراد أمثلة لها وشواهد استعان فيها بأمثلة ابن المعتز وأبو هلال (٢)

كقوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » (سورة الاسراء اية ٢٤) .

وقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » (سورة مريم اية ٤) .. يس اية ٣٧) ..

وقوله تعالى : « واية لهم الليل نسلخ منه النهار » (سورة وقوله تعالى : «وانه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » (سورة الزخرف اية ٤) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٨

(٢) « اعجاز القرآن » ص ٦٦ ـ ٧٠ ، و « الصناعتين » ص ٢٧٨ و ص ٢٧٩ ، و « البديع » ص ٣

٢ ـ الارداف :

وعرفه بقوله : هو : أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتى باللفظ الدالّ على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف ، ومثلّ له بقولّ امرىء القيس : نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلّ .

ونلاحظ أن هذا التعريف هو بعينه تعريف قدامه بن جعفر (١)

٣ ـ الغلو والافراط في الصفة :

ومما مثلّ له به قول « النابغة » :

تعـد السلوقى المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وقوله تعالى «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقولّ هلّ من مزيد» (سورة ق ٣٠) .

وقوله تعالى « تكاد تميز من الغيظ » (سورة الملك اية ٨) (٢)

٤ ـ المطابقـــة :

يقول « الباقلانى » : « ويرون من البديع أيضا « المطابقة » ، وأكثرهم على أن معناها : أن يذكر الشيء وضده ، كالليلّ والنهار ، والسواد والبياض ، واليه ذهب الخليلّ بن أحمد والاصمعى ، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز .

ثم يستشهد « الباقلانى » بالامثلة التى مثل بها ابن المعتز الطبـــاق .

فيقول : وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم :

تيقاك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان

---

(١) اعجاز القرآن وينظر النثر ص ٥٧

(٢) اعجاز القران ص ٧٧ : ٧٨

ونظيره من القرآن : « ولكم في القصاص حياة » البقرة ١٧٩

وكل الامثلة التى مثل بها « الباقلانى » لا تخرج عن أمثلة ابن المعتز (١) ٠

وكذلك أورد « الباقلانى » رأى « قدامة بن جعفر » الذى ذهب الى أن المطابقة هى : أن يشترك معنيان بلفظة واحدة (٢) ٠

٥ ـ التجنيس :

وبعد أن فرغ « الباقلانى » من الكلام عن المطابقة ـ وهو ـ كما رأنا ـ لم يزد فيها شيئا عما قاله ابن المعتز من قبله ، نراه ينتقل للحديث عن « التجنيس » فيقول : وباب اخر وهو « التجنيس » ٠

ومعنى ذلك : أن تأتى بكلمتين متجانستين : فمنه ما تكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حروفها ومعناها واليه ذهب الخليل ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق كقوله ـ عز وجل ـ « فأقم وجهك للدين القيم» (٣) ،وكقوله تعالى: « أسلمت مع سليمان » (٤) ، وكقوله : « يا أسفا على يوسف» (٥)

٦ ـ المقابلة :

ويقول فيها : ويعدون من البديع : « المقابلة » وهى أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده ، وذلك مثل قول النابغة الجعدى:

---

(١) ينظر اعجاز القران من ص ٨ الى ص ٨٣ ، والبديع لابن المعتز ط ٠ المستشرق الروسي كراتشقوفسكى ص ٣٦ ٠

(٢) اعجاز القران ص ٨١ ، ونقد الشعر ص ٦٠

(٣) سورة الروم اية ٤٣

(٤) سورة النمل اية ٤٤

(٥) سورة يوسف اية ٨٤ وينظر اعجاز القران للباقلانى ، من ص ٨٣ : ص ٨٧ ، والبديع ص ٢٥ ، ونقد الشعر ص ٦١

فتى تم فيه ما يسر صـــديقه على أن فيه ما يسوء الاعاديا

ثم يأتى لها بمثال من القران الكريم وهو قوله تعالى : « ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ، ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » (١) ...

٧ ـ المماثلة :

ويقول عنها : ومما يعدونه من البديع : « المماثلة » وهو ضرب من الاستعارة سماه « قدامة » : التتبيـــل ، وهو على العكس من الارداف ، لان الارداف مبنى على الاسهاب والبسط وهو مبنى على الايجاز والجمع .... (٢) .

ثم يعرف هذا اللون البديعى بقوله . « وذلك : أن يقصد الاشارة الى معنى ، فيضع ألفاظا تدل عليه ، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصـــد الاشـــارة اليه » ، ثم يمثل له من النثـــر بقـــول زيد بن الوليد لمروان بن محمد « .. انى أراك تقدم رجـلا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت » (٣) .

ومثال لهذا اللون من القرآن الكريم بقوله تعالى : « فما أصبرهم على النار » (٤) .

وقوله تعالى « وثيابك فطهر » (٥)

٨ ـ « المـــوازنة » :

.. ولم يذكر لها تعريفا محددا ، وانما مثل لها مباشرة بقـول القـــائل :

---

(١) سورة النحل آية ٥٣ ، ٥٤ ينظر اعجاز القرآن ص ٨٨
(٢) اعجاز القران ص ٧٨
(٣) المرجع نفسه .
(٤) سورة البقرة اية ١٧٥
(٥) سورة المدثر أية ٤

« اصبر على حر اللقاء ، ومضض النزال ، وشدة المصاع (١) ٠

ومثل لها من القران بقوله تعالى : « والسماء ذات البـــروج : واليوم الموعود وشاهد ومشهود » (٢) ٠

٦ ـ المســـــاواة :

ومعروف أن « المساواة » داخلة ضمن الايجاز والاطنـــاب وأن الكثرة الكاثرة من البلاغيين أدرجوها في علم المعانى ٠

ولكننا نلاحظ هنا أن « الباقلانى » قد تابع قدامة فعـــدها من البديع وعرفها بقوله : أن يكون اللفظ مســـاويا للمعنى ، لا يزيد عليه ، ولا ينقص عنه » ، ومثل لها بما مثل به قدامة ، ومن الامثلة التى مثل بها :

قـول زهـير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقول جـــرير :

فلو شاء قومى كان حلمى فيهم وكان على جهال أعدائهم جهلى

ولم يأت لها بأمثلة قرآنية ، وانما اكتفى بقوله عقيب الابيات الشعرية التى مثل بها : « ونظير ذلك في القران كثير » (٣) ٠

---

(١) المصاع كما في لسان العرب ج ١٠ ص ١٤ : المقاتلة والمجالدة بالسيوف ، وينظر تعليق الاستاذ سيد صقر على اعجاز القـــران « للباقلانى » هامش ٨٨

(٢) سورة البروج اية ١٠ : ٣

(٣) ينظر « اعجاز القرآن » ص ٨٩ ، ٩٠ ؛ « نقد الشعر » ص٥٥

١٠ ـ الاشـــــارة :

وقد تأثر الباقلانى في هذا الفن بقدامة فنراه يعرفه بما لايفترق عن تعريف قدامة له فيقول : « هو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة » ، ومثل له من الشعر بقول الشاعر :

شيبة من يخيب على غنى وباهلة بن أعصر والرباب

ومن القران قوله تعالى : « ولو أن قرآنا ســـــيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى » (١) .

١١ ـ المبـــــالغة :

وهى من الفنون البديعية التى اقتفى فيها « الباقلانى » أثر قدامة بن جعفر ، وقد عرفها بقوله : « تأكيد معانى الشعر » ومثل لها بقول الشاعر :

وتكرم جارنا ما كان فينا وتتبعه الكرامة حيث مالا

ولم يورد لها أمثلة قرآنية (٢) .

١٢ ـ الايغـــــال :

وقد تابع فيه قـدامة ومثل له ببيت امرىء القيس الذى مثل به قدامة وهو :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرجلنا الجزع الذى لم يثقب

ورأى أن هذا اللون لا يكون الا في الشعر خاصة ولا يطلب مثله في القران الا في الفواصل (٣) .

---

(١) سورة الرعد اية ٣١ ، وينظرن اعجاز القران ص ٩٠ ، ٩١
(٢) اعجاز القران ص ٩١
(٣) اعجاز القران ص ٩٢ ، وينظر نقد الشعر ص ٦٣

١٣ ـ التوشـــــيح :

وقد تابع فيه قدامة ، وعرفه بقوله : « هو : أن يشهد أول البيت بقافيته ، وأول الكلام باخره » ، ومثل له من الشعر بقول البحترى :

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

ومن القرآن بقوله تعالى : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » (١) .

ونلاحظ أن ما سماه « الباقلانى » : « التوشيح » سماه ابن المعتز من قبله « رد اعجاز الكلام على ما تقدمها » ، وسماه المتأخرون « رد الاعجاز على الصدور » (٢) .

١٤ ـ صحة التقسيم :

ولم يعرفه « الباقلانى » ولكنه مثل له ببعض أبيات من الشعر منها قول نصيب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم نعم ، وفريق قال : ويحك ماندرى

ويعلق على هذا البيت بقوله : « وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا » .

ومثل له من القرآن بقوله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » «٣»

---

(١) سورة المائدة اية ٣٩ وينظر اعجاز القران ص ٩٢

(٢) ينظر البديع لابن المعتز ص ٣٧ : ٥٣ ، وبغية الايضاح ج٤

(٣) اعجاز القران ص ٩٤ ، ٩٥ ، والاية التى مثل بها لصحة التقسيم هى من سورة البقرة ورقمها ٢٥٧

١٥ ـ صحة التفسير :

وقد عرفه بقوله : « ان توضع معان تحتاج الى شرح أحوالها ، فاذا شرحت أثبتت تلك المعانى من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصـــان ٠

ومثل لذلك بقول القائل :

ولى فرس للحلم بالحـلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

وبالنظر فيما قاله قدامة من قبله عن صحة التفسير نرى أن الباقلانى لم يخرج عنه لا في التعريف ولا في الامثلة (١) ولم يذكـر لهذا اللون مثالا قرآنيا ٠٠٠

١٦ ـ الترصـــــيع :

يقول « الباقلانى » : ومن البديع : « الترصيع » ، وذلك عـلى ألوان منها قول امرىء القيس :

مخش مجش مقبل مدبر معا كتيس ظباء الحلب العدوان

ثم يقول : ومن ذلك « الترصيع مع التجنيس » ، كقـول ابن المعـــتز :

ألم تجزع على الربع المحيل وأطلال و ثار محـــــولُ

ونظيره من القرآن كقوله : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغى ثم لا يقصرون » (٢) ٠

---

(١) اعجاز القران ص ٩٥ ، وينظر نقد الشعر ص ٤٩

(٢) سورة الاعراف آية ٢٠١ ، ٢٠٢ ، وينظر : اعجاز القـران ص ٩٦ ٠

١٧ ـ الالتفـــــات :

ونراه في بداية حديثه عنه يصرح بأنه ينقل عن رسالة الحسن ابن عبد الله العسكرى فيقول ومن « البديع » : « الالتفات » فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله العسكرى ، ، أخبرنا محمد بن يحيى الصولى قال : حدثنى يحيى بن على المنجم ، عن أبيه ، عن اسحق بن ابراهيم ، قال : قال لى الاصمعى : أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا ، فما هى ؟ قال :

أتنسى اذ تودعنـــا سليمى بقرع بشامة ؟ سقى البشام

ثم يورد « الباقلانى » أمثلة قرآنية لفن الالتفات منها :

« حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم » (١) ٠

وقد سبق « الباقلانى » في حـــديثه عن الالتفات ـابن المعتز وقدامة وأبى هلال العسكرى (٢) ٠

وهناك ألوان بديعية أخرى ذكرها « الباقلانى » لا يتسع المجال هنا ٠٠ للحديث عنها ، وسنكتفى بما ذكرناه منهـا للتدليل عـلى ما أوردناه ٠٠٠ ، وقد قال « الباقلانى » في تعقيبه على ما ذكره من الالوان البديعية : ووجوه البديع كثيرة جدا ، فاقتصرنا على ذكـر بعضها ، ونبهنا بذلك على ما لم يذكر كراهة التطـــويل ، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع ، وقد قدر مقـــــدرون أنه يمكن استفادة اعجاز القران من هذه الابواب التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لان هذه الوجوه اذا

---

(١) سورة يونس اية ٢٢ وينظر : اعجاز القران ص ٩٩ ، ١٠٠ و ص ١٠١ ٠

(٢) ينظر البديع لابن المعتز ص ٥٨ ، ٥٩ ، ونقد الشعر لقدامة ص ٥٣ ، والصناعتين لابى هلال ص ٣١٢

وقع التأتية عليها أمكن التوصل اليها بالتدريب والتعود والتصنع لهـــا » (١) .

ويضيف « الباقلانى » الى ذلك قوله : « ... فأما شأو نظم القران ، فليس له مثال يحتذى عليه ، ولا أمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا ، كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة ، والمعنى الفذ الغريب ، والشيء القليل العجيب ، وكما يلحق من كلامه ، بالوحشيات ، ويضاف من قوله الى الاوابد .... لان ما جرى هـــذا المجرى ، ووقع هذا الموقع فانما يتفق للشاعر في لمع من شـــعره ، وللكاتب في قليل من رسائله ... » (٢) .

... ويلاحظ على فنون البديع التى ذكرها « البـــاقلانى » في كتابه « اعجاز القرآن » أنه سار في معالجته لها على طريقة المتقدمين من أمثال : الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، وأبى هـــلال العسكرى ، فقد أدرج فيها بعض الفنون التى صارت - فيما بعد - من مباحث علم البيان ، ، وكذلك سلك فيها بعض الاساليب التى عدها المتأخرون من مباحث علم المعانى ...

كما نلاحظ أن « الباقلانى » لم يضف شيئا جديدا في البديع ، فجميع الالوان البديعية التى تضمنها كتابه « اعجاز القران » - قد تناولها من سبقوه وجاء هو لينقلها عنهم بطريقة منظمة مستقصية (٣) فكان واسع الحيلة في العبارة ، مبسوط اللسان الى مدى بعيد ، يذهب مذهب الجاحظ وابن العميد على بصر وتمكن وحسن تصرف (٤) :

---

(١) اعجاز القران ص ١٠٧
(٢) اعجاز القران ص ١١٢
(٣) علم البديع ص ٢٩٠ د. عبد الرازق زايد .
(٤) اعجاز القرآن للرافعى ص ١٩٨ : ١٩٩

هذا ... واذا كان « الباقلانى » يسوق أمثلة من سبقوه بعينها، فان هناك فرقا بين تناولهم وتناوله ، فالباقلانى لا يزيد على أن يذكر الظاهرة الفنية ومثالها أما من سبقوه فانهم كانوا يتناولون المثال بالشرح تطبيقا على التعريف .

و « الباقلانى » كان يتناول الصورة البديعية ليثبت من طريقها اعجاز القران ، فهى عنده قنطرة الى غرضه من تأليف كتابه هذا ولذلك يكتفى بالسرد ...

والصورة البديعية في نظر الباقلانى - باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة ، والقران لا ينفك عن فن من فنون بلاغتهم ، ولا عن وجه من وجوه فصاحتهم ...

د. صلاح محمود على شحاته
الاستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية بأسيوط